على ضوء قنديلها نقرأ الوطن

جريس سماوي [1]

على هدأة ابتسامتها المطمئنة، ونظرة عينيها التي تشعرك بأنك صديق قديم، وإيمانها بما أنجزت وبما تنجز، وثقتها العالية بأنها مُحاطة بالتقدير والإعجاب، تستقبلك هذه المرأة وكأنها تعلن عليك ميثاقها من المحبة والودّ والإيمان بالإنسان والوطن والتفاني في الخدمة.

يحار المرء عند الحديث عن الأستاذة هيفاء ملحيس البشير؛ فهذه المرأة هي عدة شخصيات مركبّة في شخصيةٍ واحدة. هي عدة نساء في امرأة. فمن أيِّ بابٍ سأدخل إلى عالم هذه المرأة التي تفوقت على نفسها وعلى صعوبات وعقبات ومسارب ضيقة ضبابية في مسيرتها من أجل أن تحقق رسالتها في هذه الحياة تجاه وطنها وأهلها ومبادئها.

هي ابنة نابلس التي انتمت إلى السلط، وهي التي تلقّت التعليم في القدس وتابَعَتْه في عمان، وهي التي مثلّت إنموذجًا حيًّا راقيًا للشخصية الأردنية الحديثة في امتداداتها الفلسطينية والعروبية، وكانت صورةً لشخصية بلاد الشام الثرية بمرجعياتها الوطنية والإنسانية.

عرفتُها منذ مدةٍ طويلة؛ ناشطةً في أكثر من حقلٍ ومجال. فعندما عملتُ في التلفزيون الأردني في التسعينيات، وكنتُ معنيًّا بمتابعة النشاطات الثقافية والفنية في المملكة، أذكر أنني كنت أُغطّي كثيرًا من النشاطات التي تقوم بها وتُشرف عليها هذه السيدة الاستثنائية.

تُعتبر هيفاء البشير ابنة المُثلث الجغرافي الشآمي المدني؛ نابلس، والقدس، والسلط، الذي شكّل محورًا لحركة بشرية وتنقلاتٍ للعائلات والأفراد من أجل التجارة والتعليم

(1) شاعر ووزير ثقافة سابق.

والهجرة. وقد شكلّت مدن هذا المثلث منطلقًا لحركةٍ أوسع شملت مدنًا شاميةً أخرى، كدمشق وحلب وطرابلس لبنان ثم عمّان. لقد اختزلت هيفاء البشير في شخصها وحركتها ملامح هذه التركيبة الفريدة والغنية، وكانت تعبيرًا حقيقيًّا عن مكونات المجتمع الأردني الحديث الذي تكوّن من مفردات هذا التنوع الثريِّ في إطار الوحدة والاندماج المجتمعي.

من دار المعلمات في نابلس إلى التدريس في القدس ثم إلى السلط البيت النهائيّ لهذه الرائدة عبر مسيرةٍ طويلة، كانت فيها أم مازن تتبع قلبها وتنثر الحُبَّ وحبّات العرق في كل موقعٍ عملت فيه وشغلته وتحركت في مساحته.

هي التي حصلت على «المترك» من القدس عام 1948 ولم تكتفِ به، لتعود بعد مرور سنوات طويلة فتعاود الجلوس على مقاعد الدرس طالبةً في الجامعة الأردنية وتتخرج فيها عام 1983، ثم تحصّل الدبلوم العالي عام 1988، وقد كانت قطعت طريقًا طويلًا من مسيرتها لم يقف عائقا دون طلبها العلم، حتى وهي في مرحلة عمرية متقدمة.

لقد شملت اهتمامات هذه الرائدة ونشاطاتها وعملها مساحات مختلفة ابتداءً من الكتابة للطفل وانتهاءً بخدمة كبار السنِّ مرورًا بالعمل التطوعي والسياسي ولجان المرأة ومؤسسات المجتمع المدني في شؤون الصحة والأعمال الخيرية. وهي التي ألَّفت للأطفال كتبًا تضمُّ بين دفتيها الفرح والسعادة وحكايات الجدة واليوم الماطر وقوس قزح، حتى إذا ما لملمتْ أوراقها كتبتْ أيضًا رحلتها مع الحياة والناس.

كان عام 1977 عامًا حاسمًا وحزينًا في حياة هيفاء البشير وعائلتها؛ إذ فقدت رفيق رحلتها وشريكها في الحياة الشهيد الطبيب محمد البشير، في الحادث المروّع الذي استشهدت فيه المغفور لها جلالة الملكة علياء الحسين وآخرون، وبهذا فقدت هذه السيدة الحالمة المصممة على التفوق سندها الذي كان يعينها على المضي قُدمًا في تطوير ذاتها وتعلُّمها وخدمتها للمجتمع. كان الشهيد محمد البشير يفخر بزوجته ويرى فيها مثال المرأة

الأردنية التي تتجاوز المعيقات وتضع كتفًا إلى كتف مع الرجل من أجل بناء المجتمع وخدمة الوطن.

لم تكن هيفاء البشيرمن أولئك النسوة اللواتي يسكُنَّ إلى قَدَرِهِنَّ ويَلزمن بيوتهن في حالة كهذه، بل رأت ذلك تمجيدًا لروح الشهيد وتكريمًا له، فعليها واجب الاستمرار في مسيرتها، إذ كانت تَحتُّ الخطى من أجل تحقيق المُثل والمبادئ التي آمنا بها وعملا من أجلها.

هي سيدة الخدمة العامة لكلِّ الأجيال. قدمتْ للطفولة كثيرًا من الجهد ومن عصارة أفكارها وإبداعاتها في الكتابة والتأليف. وقدَّمت وما تزال لكبار السن خدماتها من خلال تأسيس الجمعيات والمؤسسات الناجحة التي أصبحت جزءًا من البنية التحتية الخدماتية لهذه الشريحة من المجتمع التي قدَّمت للوطن كثيرًا من الجهد والخدمة.

لقد أسست البشير وأدارت جمعية الأَسرّة البيضاء ومنتدى كبار السن وجمعية التأهيل النفسي ومركز الصفصاف، وشغلت عضوية مجالس عديدة ابتداءً من المجلس الصحيِّ العالي مرورًا بمجلس أمانة عمان والمجلس الوطني الاستشاري واتحاد الكتاب والاتحاد النسائيِّ الذي كانت إحدى العضوات المؤسسات فيه، وانتهاءً بكونها رئيسة ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي منذ عام 2011، وعدد آخر من الجمعيات والمؤسسات التطوعية.

إنها مؤسسةٌ سائرةٌ على قدمينِ، بل عدة مؤسسات في امرأة واحدة. هي أمُّ مازن،.. الأم التي ربَّت ورعت عائلةً قدَّمت للوطن خيرة الأبناء، ورفدت الإدارة الأردنية بكفاءاتٍ من الرجال الذين يحملون دأب وحماسة وانتماء الأب الشهيد ومواظبة وإبداع وإصرار الأمّ التي لم تكلّ أو تملّ أو تتعب من العمل الذي أحبَّتْ وعشقتْ، ومن الانتماء لتراب الوطن ولذكرى الشهيد الذي أحبت. قامت بكلِّ ذلك من أجل الإنسان الأردني، لأنها آمنت بهذا الإنسان وبهذا الوطن وقيادة هذا الوطن، فكان أن حازت التكريم تلو التكريم والجوائز والأوسمة.

وما عسانا نضيف إلى تكريمها من إضافةٍ، إلّا أنْ نرفع قلوبنا ونبضنا وحُبَّنا وإعجابنا إلى مقامها الأعلى، مقام الأم العظيمة، ونقول شكرًا لك يا أمَّ مازن؛ على ضوء قنديلك نقرأ الوطن. شكرًا لك يا أمّنا.